Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Reason and its its Manifestations in Legal Texts

Feda Hussain Halimi

PhD student in interpretation and Quranic sciences, al-Mustafa International University, Pakistan. E-mail: Fidahaleemi@gmil.com

Abstract

Since the first centuries, the viewpoints of Islamic thinkers about determining the relation between reason and transmission (of Hadith) have diversified. Consequently, various trends have appeared in the scientific arena, from extremist textual trend, extremist rational trend to the moderate rational textual trend. Each one of them tried to determine the kind of the relation between them on the methodological foundations in which they believe. The questions being discussed here are the following: What position reason has in religious texts? How can we benefit from religious texts to enrich reason? Through the descriptive, analytical approach, we have tried to answer these questions. We have concluded that legal texts reject the extremist textual trend, and do not support the extremist rational trend, but rather, they adopt the third trend which says that fixed transmission and evidentiary reason are both divine arguments. The first is an apparent argument and the second is an esoteric argument, for religion is sometime demonstrated through reason, and other time, by transmission. However, in many questions and partial branches, reason needs religious texts.

Keywords: reason, rational approach, religious texts, transmission.

_____

Al-Daleel, 2021, Vol. 4, No. 1, PP.188-212

Received: 2/4/2021; Accepted: 9/5/2021

Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

©the author(s)

CC BY NC

العقل وتجلّياته في النصوص الشرعيّة

فدا حسين حليمي

طالب دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، جامعة المصطفى العالمية، باكستان. البريد الإلكتروني: Fidahaleemi@gmil.com

الخلاصة

منذ القرون الأولى تنوّعت أنظار المفكّرين الإسلاميين حول تحديد العلاقة بين العقل والنقل، وبالتالي ظهرت اتّجاهات متعدّدة في الساحة العلمية، من الاتّجاه النصّي المتطرّف والاتّجاه العقلاني المتطرّف والاتّجاه النصّي العقلاني المعتدل، وكلّ واحد منهم حاول تحديد نوعيّة العلاقة بينهما على الأسس المنهجية التي يؤمنون بها، والسؤال المطروح على طاولة البحث هو: ما مكانة العقل في النصّ الديني؟ وكيف نستطيع الاستفادة من النصوص الدينية في إغناء العقل؟ ومن خلال المنهج الوصفي والتحليلي حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة، وقد توصّلنا إلى أنّ النصوص الشرعية ترفض الاتّجاه النصّي المتطرّف، وكذلك لا تؤيّد الاتّجاه العقلي المتطرّف، بل تتبنّى الاتّجاه الثالث الذي يذهب إلى أنّ النقل الثابت والعقل البرهاني كلاهما حجّة إلهية، فالأوّل حجّة ظاهرية والثاني حجّة باطنية، فالدين تارةً يتمّ تبيينه على لسان العقل وأخرى على لسان النقل، ولكن في كثير من المسائل والفروعات الجزئية يحتاج العقل إلى النصوص الدينية.

الكلمات المفتاحية: العقل، المنهج العقلي، النصوص الدينية، النقل.

مجلة الدليل، 2021، السنة الرابعة، العدد الأول، صص. 188-212

استلام: 2021/4/2 ، القبول: 2021/5/9

الناشر: مؤسسة الدليل للدراست والبحوث العقديّة

© المؤلف

المقدّمة

لقد خُلق الإنسان في هذا العالم وهو يحمل الاستعداد بالقوّة للتعلّم وكشف مجاهيل هذا العالم من خلال الأدوات التي منحها الله ﷻ له، قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: 78].

هذه الآية المباركة تدلّ على أنّ كل إنسان يولد خاليًا من كلّ معرفة، ثمّ يكتسب بعد ذلك جميع العلوم والمعارف عن طريق أدوات خاصّة تربطه بالواقع الخارجي، وأدوات المعرفة وإن كانت متعدّدةً، إلّا أنّ الأداة التي لها شمولية لكلّ باحث في معالجة مسائل الرؤية الكونيّة وحلّها، وتضطلع بالدور الأساسي في نيل جميع المفاهيم الكلّية من المدركات التصوّرية، والحصول على التصديقات اليقينية هي أداة العقل، فالعقل هو المعيار لمعرفة جميع الحقائق، وهذا ما أُشير إليه في بعض الروايات أيضًا، منها ما روي عن أبي عبد الله ﷺ حيث قال: «إنّ أوّل الأمور ومبدأها وقوّتها وعمارتها ـ الّتي لا ينتفع شيءٌ إلّا به ـ العقل الّذي جعله الله زينةً لخلقه ونورًا لهم» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 23].

وقد ظهرت اتّجاهات متعدّدة في الساحة العلمية، وحاول كلّ تيّارٍ منهم تحديد نوعية العلاقة بين العقل والنص على الأسس المنهجية التي يؤمنون بها.

فأصحاب الاتّجاه النصّي المتطرّف ـ ويمثّل هذا الاتّجاه المتشدّدون من أهل الحديث والأشاعرة والسلفية الوهّابية والأخبارية ـ يدعون إلى الأخذ بظواهر النصوص الدينية، وإن أدّى ذلك إلى مخالفة صريحة مع بدهيات العقل وأوّليات المنطق، كما هو الحال عند ابن تيمية حيث كتب رسالةً أسماها "الردّ على المنطقيين"؛ وذلك لوجود التباين بين معطيات العقل وتعاليم النقل، بحيث لا يمكن الجمع بينها على حدّ زعمهم [ابن تيميّة، اقتضاء الصراط المستقيم، ج 3، ص 19]، وبالتالي يعتقد ابن تيميّة بأنّ العقل والمنهج العقلي لا يمكن الاعتماد عليهما في المسائل الدينية العامّة. [انظر: ابن تيميّة، بغية المرتاد في الردّ على المتفلسفة، ص 245]

وأمّا أصحاب الاتّجاه العقلاني المتطرّف، فقد أعطوا للعقل دورًا أوّليًّا وسابقًا على الشرع مطلقًا حتّى في المجالات التي يدرك العقل بأنّه لا يستطيع غور أسرارها ويعترف بقصوره في فهمها، كما هو الحال في المسائل الغيبية والتعبّدية، وجعلوا الدليل السمعي تابعًا للدليل العقلي ومترتّبًا عليه، ففي صورة تعارض العقل والنقل أُخذ بما دلّ عليه العقل في جميع الحالات. [محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص 56]

وأمّا أصحاب الاتّجاه العقلانيّ المعتدل فيذهبون إلى القول بأنّ النقل والعقل البرهاني كلاهما حجّة إلهية، فالأوّل حجّة ظاهرية والثاني حجّة باطنية، فمن جهة أنّ العقل في المستقلّات العقلية وفي قضايا

العلوم المتعارفة، سواءٌ كانت في الحكمة النظرية أو في الحكمة العملية، له رسالة مستقلّة والنقل يؤيّده، والنقل أيضًا له رسالة خاصّة به والعقل مصباح له، فالدين تارةً يتمّ تبيينه على لسان العقل وأخرى على لسان النقل. نعم، إنّ العقل بأمسّ الحاجة إلى النقل في بيان المسائل الغيبيّة والفروعات الجزئية وكذلك فالعقل يحتاج إلى النقل في تنبيهه إلى المنزلقات التي قد تعترضه في مسيره النظري والعملي. [جوادی آملی، انتظار بشر از دین، ص 84 – 89]

وما يهمّنا في هذا البحث هو تسليط الضوء على موقف الكتاب والسنّة من العقل والمنهج العقلي؛ حتى يتّضح من خلاله موقف النصوص الدينية من الاتّجاهات الثلاثة آنفة الذكر، وتتّضح أيضًا مكانة العقل في النصوص الشرعية وموارد حاجة العقل إلى النقل، ومن هذا المنطلق سوف يتمّ البحث ضمن النقاط التالية:

أوّلًا: تعريف المفاهيم

المفاهيم التي تحتاج إلى التعريف في هذا البحث هي العقل والمنهج العقلي.

1ـ العقل

أ ـ العقل لغةً

"العقل" في اللغة العربية: مصدر عقل يعقل بفتح العين وكسره، يطلق ويراد به عدّة معانٍ منها:

المعنى الأوّل: الإمساك والامتناع والشدّ والحبّ، قال ابن فارس: «(عقل) العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطّرد، يدلّ عُظمُه على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. ومن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل» [ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 4، ص 69]، والمعنى الثاني: الحجر والنهي، «العقل الحجر والنهى ضدّ الحمق» [ابن منظور، لسان العرب ، ج 11، ص 458]. وقيل سمّي عقل الإنسان عقلًا لأنّه يعقله أي: يحجزه عن الوقوع في الهلكة؛ ولذا سمّي أيضًا حجرًا؛ لأنّه يحجره عن ارتكاب الخطإ، وسمّي كذلك: نهية؛ لأنّه ينهى صاحبه عن فعل ما لا يحمد. [المصدر السابق، ج 4، ص 69]

وخلاصة ما يمكن قوله إنّ كلمة العقل وإن استخدمت لغةً في معانٍ متعدّدة ومختلفة إلّا أنّ هذه المعاني يمكن إرجاعها إلى أصل واحد وهو معنى الإمساك والحبس والتثبّت والمنع والعقد، وبهذه المناسبة تطلق وتستخدم في موارد متعدّدة.

ب ـ العقل اصطلاحًا

ذكرت للعقل تعريفات كثيرة، وإطلاقات عدّة، وقد فسّره أهل كلّ علم بالطريقة التي يرونها، ولسنا في مقام استقصاء كلّ ما أورده أصحاب العلوم المختلفة في تعاريف العقل من المعاني الاصطلاحية الخاصّة بهم، بل نكتفي بذكر بعض التعاريف المشهورة التي تدخل ضمن موضوع بحثنا هذا فقط، ومنها:

ـ العقل قوّة غريزية إدراكية.

الغريزة المودعة في الإنسان، وبها يعلم ويعقل، فهي شرط في المعقولات والمعلومات، وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فالعقل بهذا المعنى ذهب إليه كثير من العلماء، حيث يقول بعضهم في تعريفه للعقل: «فهو غريزةٌ وضعها الله ﷻ في بعض خلقه، وأنّه خاطبهم من جهة عقولهم، ووعد، وتوعّد، وأمر، ونهى، وحضّ، وندب» [المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص 208]. كذلك ذهب بعضهم الآخر في تعريفه للعقل بأنّه العقل الحقيقي هو الغريزة، وله حدٌّ يتعلّق به التكليف، لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان [شبانة، العقيدة بين السلف والمتكلّمين، ص 47]، وقريب إلى هذا المعنى ذهب ما ذكره السيّد المرتضى في تعريفه للعقل في بعض رسائله حيث قال: «وقيل: هو غريزة العلوم الكلّية البدهية عند سلامة الآلات» [الشريف الرضي، رسائل المرتضى الشريف، ج 2، ص 277]. هذا هو تعريف العقل عند بعض المعتزلة، وكذلك يقول الشيخ الطوسي في تعريفه: «العقل غريزة يلزمها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات» [العلّامة الحلّي، شرح التجريد، ص 251]. وإلى هذا المعنى ذهب الغزالي في "المستصفى" إذ يقول: «الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعدّ به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية» [الغزالي، المستصفى، ص 20].

ـ العقل هو عين النفس الناطقة الإنسانية

العقل بهذا المعنى ليس هو شيءٌ مستقلٌّ عن نفس الإنسان، بل هو تسمية لمرتبة من مراتبها، فمرتبة خاصّة من نفس الإنسان أو قوّة من قواها الإدراكية تسمّى عقلًا، فانّ النفس ذات مسمّيات مختلفة باختلاف مراتبها الوجودية والإدراكية، فهي في مرتبة إدراك الكلّيّات تسمّى عقلًا، وهذا المعنى من العقل قد صرّح به بعض أهل اللغة [الفراهيدي، العين، ج 1، ص 159]، وذهب إليه بعض الفلاسفة الإسلاميين في تعريف العقل في كتاب "النفس" حيث يقول صدر المتألّهين في مقام تعريف العقل بهذا المعنى ما نصّه: «الخامس العقل الّذي يذكر في كتاب النفس وهو يطلق على أربعة انحاءٍ ومراتب: عقل بالقوّة، وعقل بالملكة، وعقل بالفعل، وعقل مستفاد» [الشيرازي، شرح أصول الكافي، ج 1، ص 227]، وبعض الفلاسفة قسّموا العقل بهذا المعنى إلى العقل النظري والعملي. [السبزواري، شرح منظومة، غرر في العقل العملي والنظري]

ـ العقل جوهر مجرّد عن المادّة من جميع الجهات

هذا التعريف ناظر إلى بيان ماهيّة العقل وحقيقته، فالعقل على هذا الاصطلاح ليس أمرًا غريزيًا محضًا فقط، بل هو أوّل مخلوق روحاني خلقه الله ﷻ ليكون علّةً بالنسبة إلى جميع المخلوقات لما دونه، وهو ذو مراتب من حيث السعة والقوّة والكمال، وهذا المعنى مشهورٌ في كلمات الحكماء والفلاسفة، حيث جعلوا العقل قسيمًا للنفس، وعرّفوا العقل بأنّه جوهر مجرّد عن المادّة في ذاته وفعله. [انظر: الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص 144؛ الشيرازي، شرح أصول الكافي، ج 1، ص 216؛ الطباطبائي، بداية الحكمة، ص 69]

كذلك يقول ابن سينا في تعريفه: «العقل: جوهرٌ مجرّدٌ عن المادّة من كلّ الجهات، وهو المحرّك بحركة الكلّ على سبيل التشوّق لنفسه. ووجوده أوّل وجودٍ مستفادٍ عن الموجود الأوّل» [ابن سينا، تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، ص 82].

هذه هي جملة من الإطلاقات والتعاريف المشهورة بين العلماء، وما يهمّنا هو معرفة إطلاقات العقل في النصوص الشرعية.

2ـ المنهج العقلي

المنهج يشكل موضوعًا إشكاليًّا في جميع المعارف، لا سيّما في المعارف النظريّة، وذلك لصعوبة تحديده من جهة ولعدم إمكانيّة حسم تعدّده أو وحدته في تلك المعارف من جهة أخرى، فلنبدأ بتعريف المنهج لنحدّد من خلاله المنهج العقلي.

المنهج لغةً: المنهج هو الطريق الواضح والواسع والعريض، ومَنهَج: اسمٌ، جمعه مَناهِجُ ومَناهيجُ ومِنْهاج بمعنى: طريق واضح أو وسيلة محدّدة توصِّل إلى غاية معيَّنة. [انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 1، ص 288]

ـ المنهج العلميّ اصطلاحًا: خطّة منظّمة لعدّة عمليات ذهنية أو حسّية بُغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها [المصدر السابق]، أو هو طريق يصل به الإنسان إلى الحقيقة. [انظر: علي جواد، منهج البحث الأدبي، ص 19]

ـ المنهج العقلي

انطلاقًا ممّا ذكرناه في تعريف المنهج لغةً واصطلاحًا، نقول: المقصود من المنهج العقلي هو استضافة الأدلّة والبراهين العقلّة لإثبات المسائل العلمية والعملية، وبتعبير آخر إذا أراد أحد أن يصدق حقيقة ما وأن يعتقد بها في المسائل العلمية والرؤية الكونية والدينية، فلا بدّ أن يتمّ ذلك استنادًا على الأدلّة والقرائن والبراهين العقلية القطعية، وكذلك في المسائل العمليّة أيضًا لا بدّ أن يتمّ العمل بها استنادًا

إلى الأدلّة العقلية، مع التمييز بين المسائل النظرية (الحكمة النظرية) التي لا بدّ أن يتمّ إثباتها بالبراهين العقلية القطعية، بخلاف المسائل العملية (الحكمة العملية) التي يكفي تحصيل الاطمينان العقلائي لجواز العمل بها، وليس من الضروري تحصيل الجزم واليقين البرهاني في المسائل العملية كالتعبّديات. [جوادى آملى، انتظار بشر از دين، ص 108 و109]

المحور الأوّل: إطلاقات العقل في النصوص الدينية

عندما ندقّق في النصوص الدينية نجد أنّ لهذه المفردة إطلاقات متعدّدة، ومنها:

1ـ القوّة الغريزية

أطلقت في النصوص الروائية كلمة العقل وأريدَ منها القوّة الغريزية الموهوبة من الله تعالى، وهي كباقي القوى الغريزية والفطرية، شاملةٌ للجميع من جهة، وقابلة للزيادة والنقصان من جهة أخرى، وقابلة للتطوّر والتكامل، وعلى هذا الأساس قسّمت إلى قسمين:

أ ـ العقل الغريزي الفطري

والمراد من العقل الغريزي هو العقل الذي يقع في مقابل الحمق والسفه، كما هو الحال في كثير من الروايات، كما عن أبي عبد الله عليه السلام حيث قال: «مَا خَلَقَ اللهُ عزّ وجلّ شَيْئًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْمَقِ؛ لِأَنَّهُ سَلَبَهُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَهُوَ عَقْلُهُ» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 89]. وكذلك في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ تَزِيدُ بِالْعِلْمِ وَالتَّجَارِبِ» [الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 91، ح 1746].

فهذه الروايات واضحة بأنّ المقصود من العقل الوارد فيها هو العقل بمعنى الغريزة الفطرية في مقابل الحمق والسفه، وبه يتمّ إدراك العلوم الضرورية والمعارف الوجدانية والفطرية بمجرّد الالتفات والتوجّه إليها، وهو بدوره ينقسم إلى النظري والعملي.

ب ـ العقل الغريزي الاكتسابي

هو في الحقيقة نفس العقل الفطري الموهوب القابل للتطوير والتكامل، وقد جاء في حديث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام، وممّن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يُجزى يوم القيامة إلّا على قدر عقله» [الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 324]. والمراد من هذا العقل هو العقل المكتسب بالعلم والمعرفة والعمل، وفي رواية قسّم العقل إلى قسمين: إلى العقل المطبوع والعقل المسموع، والمراد من المطبوع هو العقل الفطري والمسموع هو الاكتسابي كما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية حيث قال: «الْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلُ الطَّبْعِ وَعَقْلُ التَّجْرِبَةِ وَكِلَاهُمَا يُؤَدِّي إِلَى الْمَنْفَعَةِ» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 6].

فالمقصود من العقل الأوّل هو العقل الذي يوجد في الإنسان بالطبع ويدرك به المدركات الضرورية والمعارف الفطرية والبدهية، وهو قوّةٌ للإدراك وللتصوّر وللتفكير، وبه يتميّز الإنسان عن غيره، ويقابله الحمق والسفه، والعقل الثاني هو العقل المكتسب يكتسبه الإنسان من خلال التربية والتجربة والممارسة النظرية والعملية، وهو بدوره أيضًا ينقسم إلى النظري والعملي.

جـ العقل النظري

مقصودنا من العقل النظري هو تلك المدركات والمعارف النظرية والاكتسابية غير البدهية، التي تصل إليها بالتفكّر، وقد عبّر عنه في النصوص القرآنية والروائية عن العقل الذي يتحرّك بالفكر والتفكّر، والفكر كما فسّر به أصحاب فنّ اللغة، بأنّه ترتيب المقدّمات والأمور المعلومة الذهنية للوصول إلى المطلوب، أي هو الحركة إلى المبادئ ومن المبادئ إلى المطلوب [المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، ج 9، ص 126]، فهناك عشرات الروايات المقصود من العقل فيها هو العقل النظري، سواء كان في التصوّرات أو التصديقات، منها: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وإنّ اللبيب من استقبل وجوه الآراء بفكر صائب، ونظر في العواقب» [الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 178]، والمراد من اللبّ هو العقل النظري بقرينة "الفكر الصائب"، وكذلك في روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ أولِي الألباب الّذين عملوا بالفكرة حتّى ورثوا منه حبّ الله، فإنّ حبّ الله إذا ورثه القلب استضاء به وأسرع إليه اللطف، فإذا نزل منزلًا صار من أهل الفوائد، فإذا صار من أهل الفوائد تكلّم بالحكمة، فإذا تكلّم بالحكمة صار صاحب فطنةٍ» [الرازي، كفاية الأثر، ص 257]. فلا شكّ في أنّ المقصود من العقل في هذه الرواية بقرينة "الفكرة" وغيرها من القرائن الأخرى هو العقل النظري، وكذلك في رواية عن أبي الحسن عليه السلام حيث قال: «يَا هِشَامُ، إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلًا، وَدَلِيلُ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 35]. يقول الملّا صالح المازندراني ما نصّه: «وإنّما صار التفكّر دليل العقل لأنّ العقل بسببه ينتقل من عالم الجهالة والسفالة الّذي هو منزل الإدبار والمسخ عند أصحاب القلوب النورانيّة إلى العلم الحقيقيّ والعالم العلويّ» [المازندراني، شرح الكافي، ج 1، ص 184]. فما يكشف به المجهولات هو العقل النظري، ويجوز تقسيم العقل النظري إلى قسمين:

1ـ العقل البسيط: أو العقل بالملكة، وهو المسمّى في مصطلح القرآن الكريم بـ "الفطرة"، وهو المدرك للقضايا البدهية أو القريبة منها، وهو مشترك بين عامّة الناس. [انظر: الطباطبائي، نهاية الحكمة، ص 306؛ الحلّي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص 339 ـ 340]

2ـ العقل المركّب: وهو المدرسي القادر على الاستدلال المركّب، فيدرك القضايا النظرية غير البدهية، سواءٌ كانت من جنس الحكمة النظرية أو الحكمة العملية، ويكشف الغموض عنها

بإرجاعها إلى البدهيات الأوّلية. [المصدر السابق]

نعم، لا بدّ من طريق معصوم بين القضايا النظرية والبدهية، وهو ما يعبّر عنه بالقواعد المنطقية. وهو خاصٌّ بالعلماء.

د ـ العقل العملي

فهو العقل المدبّر، وهو عبارة عن قوّة محرّكة تؤدّي وظيفة العزم، والإرادة، والتصميم، والمحبّة، والإخلاص، والإيمان، ويتعلّق بالبُعد العملي والتنفيذي [جوادى آملى، تبيين براهين اثبات خدا، ص 76]، وقد اختلف الحكماء في مدركات العقل العملي، وتحديد وظيفة العقل العملي. [المصدر السابق]

وقد عُبّر عنه في النصوص القرآنية والروائية بالمحرّك الذي يدفع بالإنسان للعمل نحو الخير والفلاح والسعادة والصلاح، كما ورد في رواية عن أبي جعفر عليه السلام حيث قال: «ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب» [المازندراني، شرح الكافي، ج 1، ص 80]، ويقول المازندراني أيضًا: «وفي هذه الروايات إشارة إلى القوّة النظرية المسمّاة بالعقل النظري وإلى القوّة العملية المسمّاة بالعقل العملي؛ إذ بالأولى يعلم المعارف الإلهية والأحكام الشرعية والأخلاق الحسنة النفسانية، وبالثانية يعمل بها ويهذّب الظاهر والباطن وبالعلم والعمل يتمّ نظام عبادة الرحمن واكتساب الجنان» [المصدر السابق]، وكذلك المقصود من "إيّاك أعاقب وإيّاك أثيب" هو العقلي العملي، وأنّه داعٍ إلى الخيرات المذكورة، على سبيل التوسّع؛ لأنّ المعاقب والمثاب هو النفس، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «غزارة العقل تأبى ذميم الفعل» [الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 472]، فالعقل الذي يحرّك الإنسان نحو الخير والفلاح والسعادة والصلاح، ويميّز به الخير عن الشرّ، وبه يثيب النفس ويعاقبها يوم القيامة فهو العقل العملي.

إذن من خلال بحثنا عن إطلاقات مفردة العقل في النصوص الروائية، وجدنا أنّ هذه المفردة تطلق ويراد منها نفس القوّة المودعة من الله سبحانه وتعالى لدى الإنسان تارةً وبها يصبح الإنسان مدركًا وفاهمًا، وهي تنقسم بدورها إلى الفطرية والاكتسابية، فهي كباقي المواصفات الغريزية قابلة للتسافل والتكامل، وبلحاظ كونها القوّة المدركة والمحرّكة تنقسم إلى العقل النظري والعقل العملي، إذ بالأوّل يتمّ إدراك المعارف الإلهية والأحكام الشرعية والأخلاق الحسنة النفسانية، وبالثاني يتمّ تحريك الإنسان نحو العمل وتهذيب الظاهر والباطن، وبهما يُعبد الرحمن وتكتسب الجنان، ولا يوجد أيّ منافاة بين هذه الأقسام، فالعقل ليس إلّا قوّةً باطنيةً وموهوبةً إلهيةً مجهولةً في كنهها ومعروفةً بآثارها وخصائصها، فمن جملة آثارها إدراك القضايا النظرية العلمية، وتحريك النفس وقواها نحو العمل، ويجوز تقسيمها إلى أقسام أخرى. [جوادى آملى، انتظار بشر از دين، ص 56]

المحور الثاني: العقل وتجلّياته المعرفية في النصوص الدينية

من جملة الخدمات التي تقدّمها النصوص الدينية للعقل كشف القناع عن أبعاده المتنوّعة التي يمتلكها، وأدواره المختلفة التي يلعبها في حياة الإنسان، وتبيينها للناس، وهذا المحور يتمّ البحث حوله في ضمن أمرين:

الأوّل: العقل وبعده المعرفي في النصوص الدينية

عندما نرجع إلى آيات القرآن الكريم والسنّة القطعية، ونتمعّن فيهما نجد أنّهما بوصفهما مصدرًا رئيسيًّا للدين، يركّزان على العقل، وتتجلّى فيهما أبعاده المعرفية في مستويات شتّى، ونحن نقتصر هاهنا على ذكر بعضها.

1ـ العقل وبعده المعرفي في النصوص القرآنية

إنّ القرآن الكريم لم يتعرّض لبيان ماهية العقل في صيغته الاسمية، وقد ذكر العلّامة الطباطبائي وجّه لذلك حيث يقول: «كان لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الأسماء المستحدثة بالغلبة؛ ولذلك لم يستعمل في القرآن وإنّما استعمل منه الأفعال مثل "يعقلون"» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 396]، وكلّ ما ورد فيه هو في صيغة الفعل: عقل، يعقل، نعقل، في الماضي، والمضارع، والمفرد، والجمع، وعدد هذه الألفاظ يقرب من الخمسين، ويشتمل على عشرات الآيات التي تدعو إلى التعقّل والتدبّر والنظر والتفكّر وما في معانيها، كما وردت ألفاظ مرادفة للعقل، نحو: اللبّ والحلْم والحجر والفواد وغيرها، حيث ورد الفؤاد ومشتقّاته في ستّ عشرة آية، وورد الفكر ومشتقّاته في ثماني عشرة آيةً، وورد التدبّر ومشتقّاته في ثماني آيات، وورد اللبّ ومشتقّاته في ثلاثين آيةً غيرها من الكلمات. [انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 468 و469]

أمّا ألفاظ الفكر والتفكّر والعلم والنظر والتبصّر والإدراك والتدبّر، فقد وردت مئات المرّات، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ للعقل شأنًا كبيرًا ومقامًا عظيمًا في القرآن الكريم، خاصّةً إذا عرفنا أنّ النصّ القرآني استوعب كلّ معاني التفكير الإنساني، وأنّه لم يذكر العقل إلّا في مقام المدح والتبجيل والتكريم، وكذلك بيّن خصائص العقل وآثاره المذهلة والقيّمة التي تترتّب في حالة الاستفادة اللائقة عنه، وأوضح الآثار السيّئة التي تترتّب في صورة عدم الاستفادة منه، ونحن نشير إلى بعض الخصائص المعرفية للعقل، منها:

أ ـ إدراك الآيات التشريعية والتكوينية وفهمها

إنّ فهم الآيات التشريعية وإدراكها من مختصّات الأفراد الذين يتعقّلون في أمورهم ويريدون

الصلاح والخير في حياتهم، فهناك طائفة من الآيات تشير إلى ذلك ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتابًا فيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 10]، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة اليوسف، 2]؛ لكي تتعقّلوا وتتفكّروا فيه فتعلموا، وجعل الله القرآن عربيًّا وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه.

وكذلك من جملة خصائص التعقّل والاستفادة السليمة من هذه الموهوبة الإلهية هو إدراك الآيات التكوينية وانفتاح باب الهداية التكوينية، وطائفة ثانية من الآيات تشير إلى ذلك ومنها قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: 4]، فالذي يتدبّر ويتعقّل يُكشف له أنّ هذا النظام الجاري قائم بتدبير مدبّرٍ، تخضع له الأشياء بطبائعها ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء، وأمّا الذي لا يتدبّر ولا يُفيد من عقله فلا يدرك تلك الحقائق العميقة ولا يهتدي إليها.

إذن فالعقل في هذه الآيات وغيرها هو الإدراكات التي تتمّ للإنسان مع سلامة فطرته من حيث إن فيه عقد القلب بالتصديق، على ما جبل الله ﷻ الإنسان عليه من إدراك الحقّ والباطل في النظريات، والخير والشرّ والمنافع والمضارّ في العمليات. [راجع: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 2، ص 209]

ب- الحؤول دون السقوط من مرتبة الإنسانية والدخول في النار

عدم الإصغاء لنداء العقل لازمه السقوط من المرتبة الإنسانيّة حيث يقول الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلًا﴾ [سورة الفرقان: 44]، وهذا يعني أنّ وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين، إمّا أن يستقلّ بالتعقّل فيعقل الحقّ فيتّبعه، أو يرجع إلى قول من يعقله وينصحه فيتبعه إن لم يستقلّ بالتعقّل، وإلّا فإنّه ليس إلّا كالأنعام والبهائم في كونها لا تعقل ولا تسمع إلّا اللفظ دون المعنى. [انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 15، ص 223]

كما أنّه في بعض الآيات يصرّح بأنّ الذي لا يهتمّ بعقله، ولا يلبّي دعوته، ولا يستفيد من هذه الموهوبة الإلهية سواءٌ على مستوى العقل الفطري أو على مستوى العقل الاكتسابي فمأواه نار جهنّم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعيرِ﴾ [سورة الملك: 10].

من هنا يتبيّن أنّ للعقل من وجهة نظر القرآن الكريم دورًا هامًّا وفاعلًا في شتّى مجالات الحياة، وفي مختلف المعارف والعلوم، وهذا الدور الذي دعا إليه القرآن الكريم بكلّ وضوح، وتوافرت عليه الكثير من الآيات والسور، يتمّ من خلاله التعرّف على أسرار خلق الله ﷻ وعظيم صنعه، وبه يُتوصّل إلى

تصديق الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله ﷻ لهدايته وسعادته.

2ـ البعد المعرفي للعقل في النصوص الروائية

لو نظرنا إلى روايات أهل البيت الأطهار عليهم السلام نجد أنّ للعقل أهمّيّةً قصوى أكثر ممّا هو متوقّع، وتعرّفه بعناوين مختلفة وإطلاقات متعدّدة وخصائص متنوّعة ومتكثّرة وتكشف عن أبعاد مختلفة وتتجلّى فيها أبعاده المعرفية في مستويات شتّى.

بخلاف بعض المدارس التي تنكر وجود أيّ رواية أو حديث صحيح يتحدّث عن العقل، وأنّ أحاديث العقل كلّها غير صحيحة، قال ابن تيمية: «قال أبو حاتم بن حبّان البستي: لست أحفظ عن رسول الله خبرًا صحيحًا في العقل» [ابن تيمية، بغية المرتاد في الردّ على المتفلسفة، ص 245]. وقال الخطيب البغدادي: «حدّثنا الصوري قال: سمعت الحافظ عبد الغنيّ بن سعيد يقول: إنّ كتاب العقل وضعه أربعة: أوّلهم ميسرة بن عبد ربّه، ثمّ سرقه منه داود بن المحبّر، فركّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء، فركّبه بأسانيد أخَر، ثمّ سرقه سليمان بن عيسى السجّزيّ فأتى بأسانيد أخَر» [انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 8، ص 360].

والحقّ والإنصاف أنّ هذا الموقف من بعض علمائهم يقع في جهة مخالفة تمامًا للموقف القرآني من العقل، وهذا يكشف بُعد هؤلاء عن المنهج القرآني تمامًا في هذه المسألة.

ونحن هنا نقف على بعض الأبعاد المعرفيّة للعقل في النصوص الروائية ومنها:

أ ـ العقل هو أوّل وأحبّ مخلوق خلقه الله ﷻ من نوره

ورد في بعض الروايات هذا التعبير وهو أنّ العقل هو أوّل وأحبّ مخلوق خلقه الله ﷻ بنوره جنب عرشه، كما في روايةٍ «عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، عَنْ آبَائِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْعَقْلَ مِنْ نُورٍ مَخْزُونٍ مَكْنُونٍ إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَحْسَنَ مِنْكَ وَلَا أَطْوَعَ لِي مِنْكَ وَلَا أَرْفَعَ مِنْكَ وَلَا أَشْرَفَ مِنْكَ وَلَا أَعَزَّ مِنْكَ، بِكَ أُوَحَّدُ وَبِكَ أُعْبَدُ وَبِكَ أُدْعَى وَبِكَ أُرْتَجَى وَبِكَ أُبْتَغَى وَبِكَ أُخَافُ وَبِكَ أُحْذَرُ وَبِكَ الثَّوَابُ وَبِكَ الْعِقَاب» [الحرّ العاملي، الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، ج 1، ص 114]. وكذلك عنه صلى الله عليه وآله حيث قال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلُ» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 97]. وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام حيث قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ الْعَقْلَ وَهُوَ أَوَّلُ خَلْقٍ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ مِنْ نُورِهِ» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 21].

ب ـ الفهم والإدراك والفطنة من العقل

وهذا ما نفهمه في كثير من النصوص الروائية كما في رواية عن أبي عبد الله عليه السلام حيث قال: «دِعَامَةُ

الْإِنْسَانِ الْعَقْلُ وَمِنَ الْعَقْلِ الْفِطْنَةُ وَالْفَهْمُ وَالْحِفْظُ وَالْعِلْمُ فَإِذَا كَانَ تَأْيِيدُ عَقْلِهِ مِنَ النُّورِ كَانَ عَالِمًا حَافِظًا زَكِيًّا فَطِنًا فَهِمًا، وَبِالْعَقْلِ يَكْمُلُ، وَهُوَ دَلِيلُهُ وَمُبْصِرُهُ وَمِفْتَاحُ أَمْرِهِ» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 99]، وكذلك في رواية عن الإمام علي عليه السلام: «العقول أئمّة الأفكار والأفكار أئمّة القلوب، والقلوب أئمّة الحواسّ، والحواسّ أئمّة الأعضاء» [المصدر السابق، ج 1، ص 96].

جـ العقل الحجّة الإلهية بينه وبين عباده

ففي كثير من الروايات عبّر عن العقل بأنّه حجّة إلهية باطنية بين العبد وبين الله عزّ وجلّ فكما أنّ الأنبياء والأئمّة والرسل حجّة ظاهرية من قبل الله سبحانه وتعالى على الناس، فكذلك العقل حجّة باطنية عليهم، كما في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كن مع الحقّ حيث كان، وميّز ما اشتبه عليك بعقلك؛ فإنّ حجّة الله عليك وديعة فيك وبركاته عندك» [الريشهري، العقل والجهل في الكتاب والسنّة، ص 74]. وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام حيث قال: «العقل رسول الحق» [الآمدي، غرر الحكم، ص 272] وكذلك في رواية رواها ابن السكّيت عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «ما الحجّة على الخلق اليوم؟ فقال عليه السلام: العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله فيكذّبه. قال: فقال ابن السكّيت: هذا والله هو الجواب» [الشعراني، تحف العقول، ص 450]. وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام حيث قال: «حُجَّةُ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ النَّبِيُّ، وَالْحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ اللهِ الْعَقْلُ» [العاملي، الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، ج 1، ص 121]، كذلك في رواية طويلة عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «يَا هِشَامُ، إِنَّ لِلّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً، وَحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 16]. وعنه عليه السلام أيضًا: «يا هشام، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلّهم على ربوبيته بالأدلّة» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 12 و13].

ويمكن أن نستخلص من هذه النصوص المستفيضة وغيرها بعض المسائل ومنها:

ـ كما أنّ الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام معصومون مطلقًا، فكذلك نفهم بالمقارنة أنّ العقول أيضًا بما هي هي في مدركاتها معصومةٌ مطلقًا.

ـ أنّ العقل وإن كان ذا مراتب من القوّة إلى الضعف والكمال إلى النقصان، ولكنّه بما هو هو بمقدار إدراكه لا يخطئ، فهو معصوم وحجّة على الناس. نعم، الإنسان العادي من غير الرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام ليس بمعصوم، فلا بدّ من وضع القواعد والضوابط للأخذ بالمدركات العقلية، وقد تكفّل بذلك علم المنطق والمعرفة.

ـ أنّ العقل بما هو هو قادر على تشخيص الحقّ عن الباطل والقبح عن الحسن والعدل عن الظلم

والصدق عن الكذب، ويدرك سبيل الغيّ عن الرشد، ثمّ يحكم، فهو من هذه الجهة حاضر عند جميع الناس.

ـ أنّ هذه الروايات بإطلاقاتها لا تفرّق بين العقل الفطري والاكتسابي وبين العقل النظري والعملي، وبين كون المدركات العقلية بدهيةً أم كونها نظريةً، وبين كونها مقطوعةً أم ظنّيةً، فالعقل حجّة مطلقًا في جميع إدراكاته إلّا ما خرج بالدليل.

2ـ حاكمية العقل ومشروعيته في النصوص الدينية

عندما نرجع إلى القرآن الكريم والسنّة القطعية، ونتمعّن فيهما نجد أنّهما يركزّان على العقل ويسلّطان الضوء على حاكمية العقل وحجّيّة المنهج العقلي في استنباط المعارف العقلية والدينية في شتّى المجالات، وسنشير إلى بعضٍ منها:

أوّلًا: حاكمية العقل ومشروعيته في النصوص القرآنية

ويتمّ بيان ذلك بجهات مختلفة، ومنها:

أ ـ الدعوة العامّة للتفكّر والتعقّل

إنّ القرآن الكريم إضافةً إلى أنّه يرفع الدعوة العامّة إلى الجميع نحو التفكّر والتعقّل في أكثر من ثلاثمئة آية، وأنّه حثّ على التفكير وحثّ على استخدام العقل، كما في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران: 3]، وقال تبارك وتعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة الزمر: 9]، وكلّ هذا حثٌّ على استخدام العقل واستخدام التفكير في التمييز بين الآراء والأقوال، فإذا لم يكن للعقل اعتبارٌ ومنزلةٌ عند الله تعالى، فإنّ هذا الخطاب القرآني سيُصبح حينئذٍ عديم الفائدة وبدون معنى.

ب ـ الدعوة العامّة بعدم قبول أيّ فكرة أو نظرية إلّا بالبرهان

ثمّة طائفة من الآيات القرآنية تدعو الناس إلى عدم قبول أيّ فكرة أو نظرية إلّا بالبرهان، ومنها قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [سورة النمل: 64]، والبرهان: يراد به السبب المفيد لليقين. [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 11، ص 129]

جـ الدعوة العامّة بلزوم الاعتماد على المنهج العقلي في تبيين المعارف

هناك مجموعة من الآيات القرآنية تدعونا إلى الاعتماد على المنهج التعقّلي في فهم المعارف وتبيينها وتفسيرها، ومن جملتها: قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: 125]، فالمراد من الحكمة كما أشار إليه المفسّرون هو البراهين القطعية اليقينية [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 12، ص 373]، كذلك يقول الفخر الرازي: «الحكمة هي الحجّة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمّى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: ﴿ومَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: 269]» [الرازي، مفاتيح الغيب، ج 20، ص 287]. والمراد من البرهان في الآية ليس البرهان القياسي المنطقي فقط، بل المراد به مطلق الدليل الذي يفيد العلم والاطمينان. نعم، البرهان القياسي أعمّ من البدهي والنظري اليقيني هو أوضح مصداق للبرهان القرآني.

دـ الصبغة العامّة القرآنية هي صبغة استدلالية برهانية

من خلال التتبّع نجد في موارد كثيرة أنّ الصبغة العامّة والمنهج القرآني هو منهج استدلالي وبرهاني، ويمكن الإشارة إلى بعض تلك الموارد بما يلي:

الجهة الأولى: استخدم الدليلَ العقلي في إثبات المعتقدات الدينية

إنّ القرآن الكريم نفسه استخدم الدليلَ والبرهان العقلي (العقل النظري) في إثبات المعتقدات الدينية، وفي إثبات وجود الله ﷻ تمسّكًا بالبراهين والقواعد العقليّة، منها:

1ـ القياس الاقتراني

القياس الاقتراني هو قياس مركّبٌ من مقدّمتين صغرى وكبرى، إن سلّمتا لزم منهما نتيجةٌ يقينيةٌ، ولكن في القرآن الكريم غالبًا يعتمد على هذا القياس بنحوٍ مضمرٍ، حيث يذكر الصغرى دون الكبرى، أو بالعكس، لوضوحها عند السامع، وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثمُ مِن نُّطْفَةٍ ثمُ مِنْ عَلَقَةٍ ثمُ يخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثمُ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفىَ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلًا مُّسَمًّى ولعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ [سورة غافر: 57]، فهذا قياسٌ اقترانيٌ من الشكل الأوّل يشير إلى برهان الحدوث والتطوّر للوجود الإنساني المشاهَد، وحذفت الكبرى لوضوحها، وهي كلّ حادثٍ يحتاج إلى محدثٍ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة المائدة: 75]، وهذا قياسٌ اقترانيٌ

من الشكل الثاني حذفت كبراه لبداهتها، وشكله هكذا: المسيح وأمّه يأكلان الطعام، الإله لا يأكل الطعام، فليس المسيح وأمّه بإلهين؛ لأنّ الذي يأكل الطعام موجودٌ مادّيٌّ ضعيفٌ وفقيرٌ ومحتاجٌ إلى غيره، وليس الإله هكذا. [انظر: المصري، مكانة العقل في القرآن والسنّة، ص 83]

2ـ القياس الاستثنائي

القياس الاستثنائي هو قياس مركّبٌ من مقدّمتين، أحدهما شرطية والثانية حملية، تستثني مقدّم الشرط لتنتج عين التالي، أو تستثني نقيض التالي لينتج نقيض المقدّم، هذا النحو من القياس موجود بكثرة في القرآن الكريم، ولكن بشكل مضمرٍ أيضًا، منه قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: 35]، حيث استخدم فيه عدّة قواعد من جملتها قاعدة العلّية والمعلولية، وأنّ الموجودات الخارجية ليست بما هي هي علّةٌ لأنفسها ولا لمثلها، فلا بدّ أن يكون موجودٌ غنيٌّ بالذات هو الذي أوجدها، وقد استفيد ببيان هذه القاعدة ببرهان السبر والترديد بالقياس الاستثنائي المنفصلة.

وجه الاستدلال: المقصود من الشيء: إمّا المادّة، فالإنسان خلق من العدم من دون المادّة المسبقة. وإمّا الفاعل، فالإنسان خلق من دون وجود خالق، وهو المقصود من الآية بقرينة "كونه مورد الخلاف بين الموحّد والملحد"، وبيان الدليل: المقدّمة الأولى: ولكنّهم لم يخلقوا من غير شيءٍ لأنه سيؤدّي إلى الصدفة، والصدفة محالٌ، المقدّمة الثانية: ولكنّهم ليسوا الخالقين لأنفسهم لأنّه دورٌ، والدور محالٌ. المقدّمة الثالثة: ولم يخلقهم غيرهم من الممكنات؛ لأنّه يؤدّي إلى التسلسل، والتسلسل محالٌ. إذن خلقهم الله. [انظر: جوادي آملي، تبيين البراهين على وجود الله، ص 127]

كذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَئهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [سورة البقرة: 258]، ففي هذه الآية أيضًا المستدلّ هو نبيّنا إبراهيم عليه السلام حيث يقول: "رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ"، يعني بما أنّ الموت والحياة حقٌّ فيكشف أنّهما ليسا أمرًا تصادفيًّا، فلا بدّ من أن يكون هناك محيٍ ومميتٌ لا يتطرّق إليه الفناء والإمحاء، وهو الله سبحانه وتعالى، وكذلك قول إبراهيم: "فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ .... فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ" هذا أيضًا برهان عقلي واضح ذكره في مقابل قول نمرود: "أنا أحيي وأميت".

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: 22]، وهذا استخدامٌ للدليل العقلي في إثبات وحدانيّة الله تبارك وتعالى، وهو قياسٌ متّصلٌ واستثناء نقيض التالي (ولكنّهما لم تفسدا) فالنتيجة واضحة، وهي (ليس فيهما آلهةٌ إلّا الله). [انظر: المصري، مكانة العقل في القرآن والسنّة، ص 84]

الجهة الثانية: تنبيه العقل إلى معرفة ملاكات الأحكام الشرعية

إنّ القرآن الكريم استخدم العقلَ حتّى في تنبيه العقل إلى ملاكات الأحكام الشرعية، مع أنّ الأحكام الشرعية أحكام تعبّدية ذات ملاكات خفيّة علينا، مع ذلك ذكر القرآن الكريم بعض الملاكات التي يمكن للعقل من خلالها فهم المصالح والمفاسد التي تكمن وراء تشريع هذه الأحكام الشرعية، ممّا يكشف جواز استخدام العقل النظري في الحكمة العملية مثلًا: يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: 45]، ويقول سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 183]، يعني: إنّما أوجب اللهُ الصيامَ عليكم لأجل الوصول إلى التقوى، فمَنْ يلاحِظ هذه الجهات في القرآن الكريم يدرك مدخلية الفهم العقلي في الاستدلالات القرآنية، وأهمّية المنهج العقلي في التمييز بين المصالح والمفاسد في ملاكات الأحكام بشكلٍ عامٍّ.

ثانيًا: حاكمية العقل ومشروعيته في النصوص الروائية

إذا ألقينا نظرةً على روايات أهل البيت الأطهار عليهم السلام لوجدنا أنّ للعقل أهمّيةً قصوى؛ إذ اعتبروه الحجّة الباطنة التي يُحتجّ بها على الناس يوم القيامة كما ورد في رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام حيث قال: «يَا هِشَامُ، إِنَّ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً، وَحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ» [الكليني، الكافي ، ج 1 ،ص 35]. وكذلك في رواية عن أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «حُجَّةُ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ، النَّبِيُّ وَالْحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَ بَيْنَ اللهِ الْعَقْلُ» [العاملي، الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، ج 1، ص 121]. وأكّدوا عليهم السلام اعتبار العقل ودليليته لاستنباط المعارف الدينية والعقلائية، والروايات الواردة لبيان مشروعيّة المنهج العقلي يمكن تقسيمها على أقسام:

القسم الأوّل: مجموعة من الروايات الصريحة في بيان حجّية مطلق المدركات العقلية ومشروعيتها على مستوى الحكمة النظرية والحكمة العملية معًا، وبالعقل يحصل العلم والمعرفة في المعارف النظرية والمعارف العملية، وقد ذكرنا بعض هذه النصوص وبيّنّا كيفية دلالتها على ذلك، فنكتفي بذكر رواية واحدة دالّة على ذلك، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ الْأُمُورِ وَمَبْدَأَهَا وَقُوَّتَهَا وَعِمَارَتَهَا ـ الَّتِي لَايَنْتَفِعُ شَيْءٌ إِلَّا بِهِ ـ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ زِينَةً لِخَلْقِهِ وَنُورًا لَهُمْ، فَبِالْعَقْلِ عَرَفَ الْعِبَادُ خَالِقَهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ، وَأَنَّهُ الْمُدَبِّرُ لَهُمْ، وَأَنَّهُمُ الْمُدَبَّرُونَ، وَأَنَّهُ الْبَاقِي وَهُمُ الْفَانُونَ، وَاسْتَدَلُّوا بِعُقُولِهِمْ عَلى مَا رَأَوْا مِنْ خَلْقِهِ: مِنْ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَبِأَنَّ لَهُ وَلَهُمْ خَالِقًا وَمُدَبِّرًا لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ، وَعَرَفُوا بِهِ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ، وَأَنَّ الظُّلْمَةَ فِي الْجَهْلِ، وَأَنَّ النُّورَ فِي الْعِلْمِ، فَهذَا مَا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ الْعَقْلُ» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 23]. فهذه الرواية صريحة في دلالتها على مشروعية المدركات النظرية والعملية وحجّيّتهما في إثبات وجود الله وأسمائه الحسنى وجلّ المعارف الإلهية، وقبح الأمور وحسنها. [انظر: الشيرازي، شرح أصول الكافي، ج 1، ص 223]

يتّضح من خلال بحثنا هذا أنّ النصوص الدينية أكّدت لزوم الاعتماد على المنهج العقلي والبراهين العقلية في إثبات المعتقدات الدينية وتبيينها بشكلٍ عامٍّ، وفي إثبات وجود الله ﷻ وتوحيده بشكلٍ خاصٍّ، بل وحتّى استخدمت المنهج العقلي في معرفة ملاكات الأحكام الشرعية، ويتّضح من خلال البحث بطلان الاتّجاه النصّي المتطرّف.

المحور الثالث: بيان محدودية العقل

من جملة المسائل التي تساعد بها النصوص الدينية العقل، بيان محدودية العقل ونواقصه، حتّى لا يغترّ العقل بطاقاته وقدراته ويتجاوز حدّه وطوره. فمن جهة النصوص الدينية بيّنت لنا دور العقل في حلحلة المعارف الدينية، ومن جهة أخرى تكشف محدودية العقل ونواقصه ومنزلقاته؛ حتّى نلتزم بالاعتدال والوسطية، ونجتب الإفراط والتفريط، وسيتمّ البحث عنه بأمور، منها:

1ـ محدودية علم الإنسان وعقله

توجد نصوص كثيرة تشير إلى محدودية علم الإنسان وعقله، منها: قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: 165]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 85]، نفهم منها أنّ الإنسان لا يجوز له الاعتماد عل عقله بشكل مطلق؛ لأنّنا أثبتنا سابقًا بالنصوص أنّ الْفِطْنَةَ وَالْفَهْمَ وَالْحِفْظَ وَالْعِلْمَ كلّها من العقل، وهذا يؤيّده بعض النصوص الروائية منها قول أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «لَمْ يُطْلِعِ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ» [الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص 413]. فالعقل غير قادر للوصول إلى الحقائق في جميع مجالات الحياة وإلى جميع أنحاء المعارف وأنواعها.

2ـ عدم حجّية المدركات العقلية الظنّية

إذا كانت مدركات العقل ظنّيةً، سواءٌ كانت في المسائل النظرية أم في المسائل العملية، فهي ليست بحجّةٍ مطلقًا، وليس ذلك بسبب عدم وجود دليلٍ يدل على حجّيتها فحسب، بل لأنّ الدليل قائمٌ على عدم جواز التعويل على الظنون مطلقًا إلّا ما خرج بالدليل، كما هو الحال في حجّية الظنّ الخاصّ في مجال الأحكام العملية الفرعية، والنصوص الدينية صريحةٌ على عدم جواز الاعتماد على ذلك، كما هو في قاله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [سورة يونس: 36]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [سورة الإسراء: 36]، وكذلك في روايةٍ عن المعصومين عليهم السلام حيث قالوا: «مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَقَدِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ، وَمَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَعَنَتْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ سَبِيلُهَا إِلَى النَّارِ»

[الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 190]، وفي روايةٍ ثانيةٍ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ وَلَا تُفْتُوا النَّاسَ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ ... قَالُوا: فَمَا نَصْنَعُ بِمَا قَدْ خُبِّرْنَا بِهِ فِي الْمُصْحَفِ؟ فَقَالَ: يُسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ عُلَمَاءُ آلِ مُحَمَّدٍ» [المصدر السابق، ص 186]. ففي هذه الأحاديث جُعل التفسير بالرأي إلى جانب الإفتاء بغير علمٍ، وكلاهما قد عُدّ بدعةً. ومن الواضح أنّ المقصود من الإفتاء بغير علم هو الإفتاء على أساس المدركات الظنّية والتفسير بالرأي هو أيضًا التفسير بغير العلم، وكذلك في رواية عن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: قَالَ اللهُ عز وجل: مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي، وَمَا عَرَفَنِي مَنْ شَبَّهَنِي بِخَلْقِي، وَمَا عَلَى دِينِي مَنِ اسْتَعْمَلَ الْقِيَاسَ فِي دِينِي» [الصدوق، الأمالي ، ص 6]. ففي هذا الحديث ذكر التفسير بالرأي إلى جانب تشبيه الخالق بالمخلوق، وفي حكم القياس بالدين، وكلا الأمرين بعيد عن العلوم المتعارفة والأصول العلمية البيّنة.

وفي ضوء هذه النصوص يتّضح أنّه لا يصحّ الاعتماد على الحدس والقياس والاستحسان، وما إلى ذلك من الوسائل التي لا تفيد سوى الظنّ العقلي.

3ـ توقّف العقل في المجال الذي لا يدركه

هناك مجموعة من النصوص تبيّن لنا وجود مجالاتٍ ومعارف بعيدةٍ عن متناول الإدراك العقلي، وأنّ العقل يجب أن يجتنب عن الخوض في تلك المسائل، ومنها:

أ ـ عدم الخوض في معرفة كنه ذات الله تعالى

توجد لدينا مجموعة من النصوص تنهى العقلَ عن التفكّر في كنه الذات الإلهية، وتدعوه إلى التعقّل في صفات الله وأفعاله ومخلوقاته. منها ماورد عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام حيث يقول: «لَمْ يُطْلِعِ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ» [الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص 413]. وكذلك في رواية ثانية عن أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالتَّفَكُّرَ فِي اللهِ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَنْظُرُوا إِلَى عَظَمَةِ اللهِ فَانْظُرُوا إِلَى عِظَمِ خَلْقِهِ» [الصدوق، التوحيد، ص 458]. فالعقل غير قادر على إدرك كنه ذاته والإحاطة بها.

ب ـ عدم الخوض في الأمور الغيبية

من الموارد التي لا يدركها العقل وهي بعيدة عن ساحته الإدراكية هي الأمور الغيبية، فهي من مختصّات الأنبياء والأوصياء، والعقل لا طريق له إليها، فيجب عليه أن يتجنّبها، ومنها:

ـ عدم الخوض في تفسير بواطن القرآن وتأويلاته

من الموارد الغيبيّة التي لايدركها العقل وهي بعيدة عن ساحته الإدراكية، والّتي عبّر عنها في

النصوص بباطن القرآن أو علم التأويل، فهي من مختصّات الأنبياء والأوصياء، كما في الرواية المشهورة عن أبي عبد الله: «عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: يَا جَابِرُ، إِنَّ لِلْقُرْآنِ بَطْنًا وَلِلْبَطْنِ ظَهْرًا، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْعَدَ مِنْ عُقُولِ الرِّجَالِ مِنْهُ. إِنَّ الْآيَةَ لَيَنْزِلُ أَوَّلُهَا فِي شَيْءٍ وَأَوْسَطُهَا فِي شَيْءٍ وَآخِرُهَا فِي شَيْءٍ، وَهُوَ (كَلَامٌ مُتَصَرِّفٌ) عَلَى وُجُوهٍ» [الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 176]. وكذلك في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ كَلَامَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، فَجَعَلَ قِسْمًا مِنْهُ يَعْرِفُهُ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَقِسْمًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ صَفَا ذِهْنُهُ وَلَطُفَ حِسُّهُ وَصَحَّ تَمْيِيزُهُ، مِمَّنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ- وَقِسْمًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» [الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 194]. فهذه الروايات تمنعنا عن الاعتماد على العقل للخوض في بواطن القرآن وتأويلاته؛ لأنّ هذه من مختصّات الأنبياء والأوصياء والراسخين في العلم، والعقل لا طريق له لإقامة البرهان على نفيها ولا على إثباتها، وبالتالي لا يرتقي الإدراك العقلي، فيكون حكم العقل فيها حكمًا ظنّيًّا، وتجد أمثلةً كثيرةً لها، منها:

ما فسّر به ابن عربيّ قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمن: 19 و20]، إذ زعم أنّ مرج البحرين هو بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأجاج، وبحر الروح المجرّد هو العذب الفرات، يلتقيان في الموجود الإنساني، ولا تتجاوز الهيولى الجسمانية على الروح المجرّدة ولطافتها، فلا يغلب أحدهما حدّه على الآخر بخاصّته، لا الروح المجرّدة تجرّد البدن وتجعله من جنسها، ولا البدن يجسّد الروح ويجعله ماديًّا. [ابن عربيّ، تفسير القرآن، ج 2، ص 280]

ـ عدم الخوض في المسائل التفصيلية لعالم الآخرة

من مختصّات القرآن الكريم وبيان الأنبياء والأوصياء هو ذكر تفاصيل وخصائص عالم الآخرة؛ لأنّها من الأمور الغيبية التي لا يجوز للعقل الخوض في تفصيلاتها، وبالتالي ولا يجوز للعقل تأويل الآيات التي تتحدّث عن خصائص عالم الآخرة، ولكنّنا مع الأسف الشديد نجد ممّن أنكر الوجود الخارجي العيني للآخرة على أساس الظنّ والاستحسان، واعتبر الجنّة هي هذه القيم الأخلاقية، بينما هناك آخرون حاولوا تصوير عالم الآخرة بأنّه مثل العالم الدنيوي، حتّى بلغ الأمر بهم إلى أنّهم اعتقدوا بأنّ الجنّة العليا موجودة في هذه الدنيا! بينما النصوص الدينية تكشف زيف فهم هؤلاء وأمثالهم، وتنقل أحاديث المنكرين للمعاد، التي لا تكون في الغالب إلّا استبعادًا لإمكان المعاد، واستدلالهم قائم على الظنّ والاستحسان، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية: 24]. بينما الرؤية الموضوعية العلمية، والاحتياط والحذر الديني المسؤول، كلّها تفرض علينا أن نمنع أنفسنا عن طرح الآراء غير اليقينية حول حقائق القيامة وعالم الغيب، أو التمسّك بالتأويلات التي لا تعتمد على الدليل والبرهان. [انظر:

مصباح يزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ج 3، ص 426]

ـ التفسير الظنّي لآيات القرآن

نجد أحيانًا بعض المفسّرين يقومون بتفسير بعض الآيات التي لا يجوز تفسيرها على المنهج العقلي ويعجزون عن إقامة برهان عقلي على تبيينها، فيفسّرونها على أساس التخمين والقياس والظنّ والمزاعم والميولات الشخصيّة، فهو في الواقع استبداد بالفهم القرآني، ومصداق بارز لمن فسّر القرآن برأيه وبغير علم. نعم، للمفسر أن يذكر المعنى الذي لم يقم الدليل العلمي عليه بأنّه من المعنى المحتمل للآية، من دون الحتم والقطع به [انظر: جوادي آملي، التسنيم، ج 1، ص 226]، وهذا له أيضًا أمثلة كثيرة تجدها في الكتب التفسيرية، ومن أبرز المذاهب في هذا النوع من التفسير أصحاب الاتّجاه العقلاني المتطرّف (أهل التأويل والاستحسان) وأصحاب القياس والاستحسان وغيرهم، فمثلًا منهم من يفسّر قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس: 8] بالقول إنّ الجنّ هو الاستتار، والإنس هو الاستئناس، فالأمور المستترة هي الحواسّ الباطنة، والمستأنسة هي الحواسّ الظاهرة. [ابن سينا، جامع البدائع، ص 21]

تنبيهات

أوّلًا: النقد الموجه إلى هذا النوع من التفسير كونه قد تجاوز حدود العقل البشري وأعطاه مساحةً كبيرةً تجاوزت حدوده في تبيين القضايا الدينيّة، وبالنتيجة ارتكبت بعض التفسيرات غير الصحيحة في تفسير الآيات القرآنية كما في مسألة الشفاعة [سبحاني، بحوثٌ في الملل والنحل، ج 3، ص 32]، ومسألة الجنّ أو تأويل الآيات الدالّ على تجسيم الأعمال [انظر: القاضي عبد الجبّار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ج 1، ص 29]، والسبب في ذلك هو استخدام العقل غير البرهاني والابتعاد عن المسار الصحيح عن العلم الإلهي الذي يتمثّل بعلوم أهل البيت عليهم السلام.

ثانيًا: مفاد هذه الرؤية أنّ العقل هو ميزان الوحي والشريعة، فلو جاء الوحي بأمرٍ لم يدركه العقل، فالعقل يحكم ببطلانه، وهذا كلام باطل؛ لأنّ العقل بنفسه يدرك أنّه لا يدرك كثيرًا من أسرار العالم، ويطلب الهداية ويحكم أنّه ليس معصومًا، فكيف لهذا العقل الذي يعترف بعجزه العلمي والمعرفي أن ينتقد الوحي أو الأمور التعبّدية التي لا يدرك حكمتها. [جوادى آملى، انتظار بشر از دين، ص 86]

4ـ تفصيل ما هو مجمل من الآيات

إنّ الله تعالى أنزل مجموعةً من الآيات، فهي مجملة بحيث لا ينبئ ظاهرها عن المراد به مفصّلًا مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [سورة البقرة: 34]، وتفصيل عدد فرائض الصلاة وعدد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحجّ وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن

استخراجه إلّا ببيان النبيّ الأكرم ﷺ، فتكلّف القول في ذلك خطأٌ ممنوع منه [جوادي آملي، التسنيم، ج 1، ص 233]؛ لأنّ الجزئيات وتفاصيل الشريعة من التعبّديات، والعقل يعجز عن إقامة البرهان في تلك الأمور؛ لأنّ مهمّة العقل هي إدراك الحقائق والمفاهيم الكلّية والعامّة، وفي تفصيل الشريعة لا يحقّ له أن يتدخّل لا إثباتًا ولا نفيًا.

الخاتمة

تبيّن من خلال البحث أنّه توجد مجموعة من المجالات المعرفية لا طريق للعقل إليها، والعقل يدرك أنّه لا طريق له لإقامة البرهان على نفيها أو إثباتها، وبالتالي لا يرتقي إلى إدراك تلك المعارف ويكون حكم العقل حكمًا ظنّيًّا، ووجدنا أيضًا أنّ النصوص الشرعية أشارت إلى محدودية العقل في بعض المجالات المعرفية والدينية، وبيّنت المصاديق التي لا يحقّ للعقل فيها الحكم من دون الرجوع إلى النصوص الشرعيّة، و يتضح جليًّا بأنّ النصوص الدينيّة ترفض الاتّجاه العقلاني المتطرّف الذي يريد أن يقحم العقل في معرفة جميع المسائل الغيبية الدينية، من خلال إطلاق العنان له بذريعة فرعيّة النقل وأصالة العقل والمنهج العقلي، بينما النصوص الدينيّة تؤيّد الاتّجاه المعتدل وتكشف قصور العقل ومحدوديّته، وتبيّن منزلقاته بكلّ صراحة.

قائمة المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، دار الكتاب الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، 1410 هـ.

ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي، طهران، الطبعة السادسة، 1376 ش.

ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، المكتبة الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، 1395هـ.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، بغية المرتاد في الردّ على المتفلسفة، من موقع مكتبة النور، 2009 م.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الردّ على المنطقيين، من موقع مكتبة النور، 2009 م.

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، الإشارات والتنبيهات، مطبعة الحيدري، طهران، 1379 ش.

أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1399 هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، 2000م.

جوادى آملى، عبدالله، انتظار بشر از دين، موسسه اسراء ، قم، چاپ چهارم ، 1386ش.

جوادى آملى، عبدالله، تبيين براهين اثبات خدا، موسسه اسراء، قم، چاپ دوّم، 1375 ش.

الحر العاملي، محمد بن حسن، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، 1409 هـ.

جوادي آملي، عبد الله، التسنيم في تفسير القرآن، تعريب السيد عبد المطلب رضا ، مطبعة الإسراء، الطبعة الأولى، قم، 1432 هـ.

الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثامنة، قم، 1419 هـ.

الحقي برسوي، إسماعيل بن مصطفى، تفسير روح البيان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.

الحرّ العاملي، محمد بن حسن، الفصول المهمّة في أصول الأئمّة.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، دار ومكتبة الهلال، لبنان، 2007 م.

الخزاز الرازي، على بن محمد، كفاية الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر، مؤسسة بيدار، قم، 1401 هـ.

الدهلكي، ثناء الدين، المنهج العقلي في تفسير القرآن، مؤسسة الكوثر للمعارف، الطبعة الأولى، 1396 ش.

المصري، أيمن، مكانة العقل في الكتاب والسنّة، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، الطبعة الأولى، 2020 م.

سبحاني، جعفر، بحوثٌ في الملل والنحل، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، الطبعة الأولى، 1418 هـ.

السبزواري، الملّا هادي، شرح المنظومة ، نشر ناب، طهران، 1369 ش.

الشيرازي، صدر الدين، شرح أصول الكافي، مؤسسه مطالعات و تحقيقات، طهران، 1383 ش.

الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، الشريف الرضي، قم، الطبعة الثالثة، 1364 ش.

الطاهر، علي جواد، منهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة، بيروت، 1988 م.

الطريحي، فخر الدين بن محمد، مجمع البحرين، مرتضوي، طهران، 1375 ش.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1390 هـ.

الطباطبائي، محمدحسين، بداية الحكمة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1420 هـ.

الطباطبائي، محمدحسين، نهاية الحكمة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1424 هـ.

الطبرسي، الفضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ناصر خسرو، طهران، الطبعة الرابعة، 1372 ش.

الطوسي، نصير الدين ، تجريد الاعتقاد، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1419 هـ.

العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، 1380 ش.

33. القمي، علي بن ابراهيم، تفسير القمّي، دار الكتاب، قم، 1363 ش.

القاضي عبد الجبّار، تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت، الطبعة الثانية، 2005 م.

الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي، قم، الطبعة الأولى، 1429 هـ.

الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، قم، الطبعة الأولى، 1376 ش.

المحاسبي، حارث بن أسد، العقل وفهم القرآن، تقديم د. حسين القويلي، دار الكندي للطباعة، الطبعة الثالثة.

المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الثقافة والإرشاد في جمهورية إيران الإسلامية، الطبعة الأولى، 1371 ش.

المازندراني، محمدصالح بن أحمد، شرح أصول الكافي، المكتبة الإسلامية، طهران، الطبعة الأولى، 1382 هـ.

محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار المنار، الطبعة السابعة، 1367 هـ.

مصباح يزدي، محمدتقي، دروس في العقيدة الإسلامية، مؤسسة الإمام الخميني، الطبعة الثانية، 1421 هـ.

الخباز، السيد منير، محورية الدليل العقلي للدين، موقع سماحة العلامة السيد الخباز.

الرباعة ، العقل ومكانته في الكتاب والسنة، للمفتي الدكتور عبد الله عن موقع دار الإفتاء.

References

Al-Aamudi, Abdul-Wahid bin Muhammad, *Ghirarul-Hikam wa Durarul-Kelim,* Darul-Kitab Al-Islami, Qom, 1st Edition, 1410 AH.

Ibn Babweih, Muhammad bin Ali, *Al-Amali*, Tehran, 6th Edition, 1376 Iranian Calendar.

Ibn Taymiyyah, Ahmad ibn Abdul-Haleem, *Al-Radd alal-Mantiqiyyeen,* from Al-Noor Library website, 2009 AD.

Ibn Sina (Avicenna), Al-Hussein bin Abdullah, *Al-Isharaat wel-Tenbeehaat,* Al-Haidari Press, Tehran, 1379 Iranian Calendar.

Ahmad ibn Faris, *Mu'jam Maqayees al-Lugha,* Darul-Fikr, 1399 AH.

Ibn Mandhour, Muhammad ibn Makram, *Lisanul-Arab*, Dar Sader, 1st Edition, Beirut, 2000 AD.

Jawadi Aamoli, Abdullah, *Man's Expectation from Religion*, Israa' Foundation, Qom, 4th edition, 1386 Iranian Calendar.

Al-Haqqi Barsawi, Isma'eel bin Mustafa, *Tafseer Rouh Al-Bayan*, Darul-Fikr, Beirut, 1st edition.

Al-Farahidi, Al-Khalil bin Ahmad, *Al-Ayn*, Al-Hilal Foundation and Library, Lebanon, 2007 AD.

Al-Misry, Ayman, *The Position of Reason in the Book (Qur'an) and the Sunnah*, Al-Daleel Foundation for Doctrinal Studies and Research, 1st Edition, 2020 AD.

Subhani, Ja'far, *Studies on al-Milal wel-Nihal*, Imam Al-Sadiq Foundation, Qom, 1st Edition, 1418 AH.

Al-Sabzuwari, Mulla Hadi, *Sharh al-Mandhuma*, Nab Publications, Tehran, 1369 Iranian Calendar.

Al-Shirazi, Sadruddeen, *Sharh Usool Al-Kafi*, Readings and Investigations Foundation, Tehran, 1383 Iranian Calendar.

Al-Turaihi, Fakhruddeen bin Muhammad, *Majma'ul-Bahrain*, Mortazawi Foundation, Tehran, 1375 Iranian Calendar.

Al-Tabatabaei, Muhammad Hussein, *Nihayatul-Hikma*, Islamic Publishing Foundation, Qom, 1424 AH.

Al-Tousi, Nasiruddeen, *Tajreedul-I'tiqad*, Islamic Publishing Foundation, Qom, 1419 AH.

Al-Qummi, Ali bin Ibrahim, *Tafsir Al-Qummi*, Darul-Kitab, Qom, 1363 Iranian Calendar.

Al-Kulayni, Muhammad bin Ya'qoub Bin Isshaq, *Al Kafi*, Qom, 1st Edition, 1429 AH.